

أين عدلُ الله؟!



العلماء والمفكِّرون ومنهم (الشهيد مرتضى مطهري) - كما في كتابه القيِّم (العدل الإلهي) - أجابوا عن أسئلة المشكِّكين بعدالة الله في حدوث المصائب والابتلاءات والكوارث، بما مختصره:

1- إنَّ الفوائد والأرباح والتعويضات التي تعود على الإنسان المبتلى كثيرة، أكثر مما يناله وما يصيبه من أذى، وهي ليست تعويضات عن خسائر فقط، بل هي جبران روحي، وتربوي، ومعنوي، وبناء لرمانة ومتانة الشخصية الإسلامية خاصَّة، والإنسانية عامَّة.

2- كلُّ الآلام والمصائب التي تحلُّ بالإنسان، فيها أُلطف إلهية خفيَّة، يدركها مَنْ يدركها، ويغفل عنها مَنْ يغفل، فهي بمثابة إصلاحات لسير معوجٍّ، أو إعادة بعد انحراف عن الطريق، أو تقريب من ساحة الله، وإبعاد عن أضرار وأخطار الذنوب والمعاصي والجرائم.. وبالجمل، فالإبتلاءات مُقوِّيات للمناعة الروحية، ومُنشِّطات للعزائم والملكات النفسية.

3- إنَّ تعويضات الله الرحمان الرحيم ليست أُخرويَّة فقط، بل هي دنيوية أيضاً، فهو سبحانه كما

يُعَوِّضُ الأعمى عن عماه، والمُعَوِّقُ عن عوقه، والمصاب عن مصيبته، يُعَوِّضُ المبتلين بعوضين: دنيويٍّ وأُخرويٍّ.. أما رأيتَ كيفَ أنَّهُ سبحانه وتعالى عَوَّضَ أَيُّوبَ 7 عن خسائره كلَّها، فعافاه في بدنه، وعَوَّضَ عن خسائره في المال والولد، وكتبه من الذاكرين، الشاكرين، الصابرين، المحسنين؟

يقول (جلال الدين الرومي): «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه: فإن (صبر) اجتباها! وإن (شكر) اصطفاها! لأنَّ الشُّكْرَ تريقاً يقلبُ الفهرَ لُطفاً، والشُّكْرَ امتصاصٌ لثدي الذِّمَّةِ، والثديُّ برغم امتلائه بالحليب لا ينساب منه الحليب إذا لم يُمَصَّ» ! وتبقى تعويضات الآخرة أكمل وأشمل وأتمَّ وأبقى وأوسع وأنفع وأرفع.

4- غير أنَّ أهمَّ ما ينبغي التنبيهُ والالتفاتُ إليه هو أنَّ الجهاز المناعي الروحي والنفسي للإنسان لا يقلُّ أهميَّةً عن جهازه المناعيِّ البدنيِّ، بل هو أهمُّ.. فكما أنَّنَا في ظلِّ هذه الجائحة نحتاج إلى تقوية المناعة البدنية، نحتاج ربَّما بدرجة أكبر إلى تقوية المناعة الداخلية، نظراً لتلازم المناعتين وترابطهما ترابطاً وثيقاً، ولذلك لاحظنا أنَّ (منظمة الصحة العالمية) وكلَّ الجهات الصحيَّة المختصة توصي وتُشدِّد الوصية على الحفاظ على الجهاز المناعي قوياً، بل يركِّزون بموازاة الرعاية الصحيَّة البدنية، على الرعاية الصحيَّة النفسية، ذلك أنَّ الوقاية من أي مرضٍ ووباء، بدني أو نفسي أو سلوكي، تحتاج إلى تفعيل الجهازين المناعيين معاً، فلقد تبيَّن وثبت من خلال الإحصاءات والدراسات الميدانية، أنَّ الذين يموتون من القلق والذُّعر والتوتُّر والخوف والكوابيس، ليسوا بأقلَّ من الذين يموتون بالوباء نفسه، بل قد تظهر أعراضٌ جسدية ناجمة عن تغيُّراتٍ وتوتراتٍ نفسية تُصيب الجهاز المناعي في الصميم، فيسهل على الوباء اقتراس الذين تراخت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، واهتزَّت روجيَّاتهم.

يُحكى أنَّ رحَّالةً مرَّ بمدينة أصابها وباء، وكان أهلها مئةَ ألف أو يزيدون، فسأل عن عدد الصحايا، ف قيل له أربعون ألفاً! وفي طريق عودته عرَّج على المدينة الموبوءة المنكوبة، فلم يرَ فيها إلا القليل القليل، فسألهم: لقد عرفتُ عددَ المصابين، ما بالُ الباقين؟ قالوا له: ماتوا من الخوف واليأس والهلع والفرع والجزع!!